سِفْر التكوين

• هاشم غرايبه*

صرّةُ الفطور معلّقةٌ بأصابعه. داخِلَها وعاءٌ فخاريٌّ مصقول، جفَّتْ على حوافه بقايا لبنٍ خاثرٍ. ورائحةُ خبزٍ جافرٍ تفوح.

تسير ريّا إلى جانبه حاملةً على كتفيْها قِرْبَة ماءٍ كبيرة، تُمْسك طرفيْها بثقة.

ساعداها المرتدّان تجاه القِرْبة يُسقطان كُمَّها الواسع، فيشرئبّ بياضُ ذراعها البضّ.

يَفُور تحت أردان الثوب المتهدّلة رجراجان نافران، زاد مَعْلَمَهما وضوحًا انسيابُ الماء من القِرْبة على الكتفيْن والصدر.

يَلْتصق ثوبُ «الحَبَر» الفضفاضُ بجلدها، وتَلْمع نقاطُ الماء العذبة على خيوط «السّاتان» البرتقاليّة التي تطرِّز الثوبَ بشموسٍ مطفأة.

يهبّ هواءٌ خفيفٌ ساخن هبط للتوّ عن التلّة غربيَّ القرية. مرّ بالطرقات الخالية المغبرّة، وانسرب إلى سهول القمح الذهبيّة ليَسْحب فضلةَ الثوب ويُظْهرَ مفاتنَ ريّا نافرةً مثيرةً.

يكشّ الذبابَ عن بقايا كشط في ركبته اليسرى. يقع بصرُه على قدميْه الحافيتيْن. يخجل: لو أنّني ببنطالي الأزرق ذي الساقين الطويلتين! لكنّني أضطرّ للبس كاكي قصير بحجّة أنّني رايح للشغل!

حاول أن يرى نفسَه بعينيها. تلفّتَ إلى وجهها. ارتبكتْ مشيتُها قليلاً. ارتضّ ذاك الأيمنُ الطريُّ الشهيُّ النافرُ على كتفه. تعثّر. كاد يسقط. أمسكتْ ريّا يدَه وساعدتْه. وقفتْ لتعدّلَ وضعَ القِرْبة على كتفها. نظر إلى عينيها مباشرةً.

كانت يدُها ماتزال في يده. سرى دفءٌ لذيذٌ في جسده. وضع يدَه الأخرى فوق يدها بحركة عفويّة، كعابدٍ هَبَط عليه الوجدُ فجأةً. سحبتْ يدَها ببطء، وارتدّت بها إلى قِرْبة الماء. عيناها جادّتان في التعرُّف إلى عينيه. تلمَّسَ قطعةَ القماش المتّسخة التي تَعْصب رأسَه. أحسَّتْ يدُه طراوةَ الجرح، ولزوجةَ الدم خَلَلَ العصْبة. قالت برقة: «انتبهْ! الشوكة علقتْ بقدمك.»

أفاق. متى عرج على عين الماء؟ ماذا قال أبوه؟ ماذا اقترح؟ كان غارقًا بهواجس شتى، متلفِّعًا بجلده، دافئًا أحلامَه السريَّةَ في أبعد نقطة من نفسه: إنّها هي، بعينيها الرائعتين، بشعرها الذهبيّ وضحكتها، وذيْنك الكافريْن المهتزَّيْن دائمًا. لفرطِ ارتباكه، لا يُحْسن تذكُّرَ ما حدث في الحقل بترتيبٍ منطقيّ، لكنّه أحسّ إحساسًا فطريّاً وغامضًا بأنّ الملامسة الأولى منذ لحظة قررتْ كلّ شيء.

ريّا عادت تسير بثقة وثبات. تبدو كأنّما تسير وحدها.

هذا جاسر، ابنُ صفّه، أعطاه شيخُ الكُتّاب طاقيّةً جديدةً تقيه حرَّ الشمس لأنّه حفظ «جزء عم» غيبًا. لا وقت للمباهاة. إنّه يسوق الحمارَ الأشهبَ المحمّلَ بحزْمتَيْن كبيرتَيْن من القشّ يتجاوزه ويبتسم له ابتسامةَ الصديق: فهو يَعْرف ما حدث بالحقل؛ يعرف كيف طاش الحجرُ الموجَّهُ الى الأغنام القريبة من السنابل فأصاب رأسَه. ردّ ابتسامتَه بخجل، وابتعد متقدِّمًا ريّا خطوةً. يتوقّف جاسر. يوقف الحمارَ. يسارع إلى مساعدته في تعديل الحِمْلِ على ظهر الدابة. يحاول أن يستشفّ إنْ كان قد ارتاب بشيء ما؟

يقول جاسر: «كيف، حلّيتْ بَدْري اليوم: تمنيت الحجر برأسي، أهون من الشمس والحصيدة.» ومضى جاسر وراء حماره.

هذه أم حمد تَحْمل على رأسها صُرّةً كبيرةً تفوح منها رائحةُ الخبز الطازج والزيت. تسلِّم. تردّ ريّا باقتضاب. تضحك. يدقّ قلبُه بسرعة. تقول أم حمد: «تأخّرتِ ع الحصادين يا ريّا، واللّه غير يوكلوا قطعة منّي.» تهمهم ريّا بكلامٍ غيرِ مفهوم. تضحك ريّا وأم حمد، ويستمرّ كلٌّ في طريقه. أم حمد لم تُعِرْه انتباهًا!

القرية ساكنة هادئة لا تُسْمع فيها نأمة. لا شيء غير الشمس الساطعة على أزقتها الترابيّة الفارغة إلاّ من بعض السحالي الكبيرة السوداء تُطِلّ من بين حجارة السناسل البازلتيّة، وتعود لتختبئ.

---

* ـ كاتب من الأردن.

جميعُ مَنْ في القريةَ نَفروا خفافًا وثقالاً إلى الحصاد. طرقاتٌ فارغةٌ صامتة. شمسٌ لاهبة. حتى تلك الكلبة الكسولة، التي لم تَخْرجْ مع القطيع، صامتةٌ تتمرّغ كسلى في ظلّ الجامع، وتتصيَّد الذبابَ عن ذيلها.

سكون، سكون. كل شيء هادئ، وجسدان يتحرّكان تحت أشعّة تموز. كلّ شيء ساكنٌ إلاّ جسمًا يَفُور أنوثةً، ورأسًا تصطرع فيه الأفكارُ. جسدان يهدّهما التعبُ وتلوّحهما الشمسُ.

المنزل أليف وهادئ. حتى الدجاجات اللاتي يقأْقئن باستمرار، كنّ هادئات في ظل الحوش، وقد نبشتْ كلُّ واحدة منهنّ حفرةً صغيرةً استكانت لرطوبتها في ذلك اليوم القائظ. كان الديك يَرْبض كسلانًا فوق السنسال، يلتمع ريشُه الملوّن تحت أشعة الشمس، مفضّلاً النظرَ إليهما بوقاحة العارف.

دخلا البيت الكبير.

مازال تحت تأثير هواجسه حين تخطّى عتبةَ البيت. وقف تحت إبطها. فرقَعَ الحمّصُ على الصاج المحمَّى. كانت تلك ضحكتها: علامك؟

صمتٌ، والدم يفور في العروق. تلعثم وفكّر أن يُطْلق ساقيْه للريح، لولا أنَّها طلبتْ منه أن يُنْزل القِربةَ عن كتفيها لتُفْرغَها في الزير. رفع يدَه مأخوذًا بها. مدّ جسده ليتناول القِرْبة، فلم يصل.

اقترب.

وقف على رؤوس أصابعه. تعالى ضحكُها الصاخبُ من جديد، واهتزّ صدرُها: الرمّانتان الناضجتان تعلوان وتهبطان. ارتجَّت أردافُها العفيَّة، فاضطربت المرئيَّات أمامه، وظلّت يداه معلَّقتين في الفراغ، وصرّةُ الفطور معلقةً بيده.

«يا ول، حطّ من يديك وتناول القِرْبة.»

من ارتفاع يديه الممدودتين لأعلى سقطت الصرّةُ وتحطّم الإناءُ الفخّاريّ. تناثر قطعًا، مُصْدِرًا قرقعةً اختلطتْ بضحكها الصاخب.

الجسد العَبْلُ يهتزّ. القِرْبة تترجرج وتنزّ المزيدَ من الماء على الجمر فيزداد اشتعالاً. الجسد تتّضح معالمُه أكثرَ تحت الثوب المبلَّل. ضحكتُها تزداد صخبًا. جسده يرتجف، وتضطرب المرئيَّاتُ أمام عينيْه الدهشتيْن. يدور: يمينًا يدور، يسارًا يدور، على نفسه يدور. يكاد يسقط، فتتلقّفه بذراعيْها. ينهمر قليلٌ من ماء القِرْبة على رأسه. ينتفض. يصرخ. يهوي عليها بكفّه. يغوص في لجّة من الطراوة والرطوبة الطازجة. يتصاعد التوتُّر. ماءُ القربة ينحدر نحو الزير... ويهدأ.

كان مقعيّاً على حافة المصطبة أمام البيت الكبير بعد أن طلبتْ منه أن يعلِّق ثوبَها المبلَّلَ في الشمس حتى يجفّ. لحظات وانسابَ ماءُ الزير البارد على جسدها، فالتهب رأسُه بالصور والخيالات. طلبتْ منه بصوتها الأبحّ المتقطّع أن لا يحاول النظرَ من ثقب الباب، وهي تَعْلم أنَّ بالباب من الشقوق أكثرَ ممّا به من الثقوب. حينها تدفَّقَ الدمُ حارّاً تحت جلده ودارت الدنيا من حوله.

«ناوِلْني الثوبَ يا ويلي.»

قال كلامًا غير مفهوم. ناولها الثوبَ من الباب الموارِب، وأشاح بوجهه. شتمتْ شيئًا ما بصوت مبهم.

همستْ: لبستُ.

دفع الباب، فأصدر صريرَه التاريخيَّ العتيق.

• هـاشـم غـرايـبـه

(.. يا رب رحمتك، شفاعتك يا سيدي، شرحبيل).

ريّا تُسْدل ثوبَها الرطبَ على لحمها المبلول.

شعرُها الذهبيّ منثور حول وجهها.

الوشم الأخضر، الخد الخمريّ، الشعر الناريّ. (يا إلهي لستُ أنا يوسف، وما لي طاقةٌ بامرأة العزيز).

ماء ورمل وشمس وشوق ولبن...

(صدرها.. صدرها! مثلّث واسع تحدِّده ياقةُ الثوب الأسود الرطب. هذا مبتدأ النهديْن يَظْهر كوادٍ غير مزروع. الحلمتان! يا ويلي، برزتا لبرودة الماء، ونطّتا عن الحَبَر المطرّز الرطب المنسدل ليحدِّد معالم البطن الضامر والعموديْن المدوريْن. ماذا أقول بعد؟ شفاعتكم يا أسيادي.. رحتمك يا ربّ).

الدم يتدفّق حاراً تحت جلده، وتتوتّر العروقُ أكثرَ من مداها.

جذبتْ قميصَه الناشف ـ وكان مايزال يعصره مداراةً للحرج ـ فانجذب إلى الداخل. اصطدم بجسدها. تراخت ساقاه. غامت عيناه. صارت الأشياءُ كالعِهْن المنفوش.

عجز عن التقدّم. ترنّح. زلّت قدمُه. كان صدرُه يخفق لاهثًا كأنّه يحترق من الداخل.

الساقان الممتلئتان عسلاً وزبدًا وقيصومًا تتعثّران بجسمه الناحل. أرض الغرفة الترابيّة مبلولةٌ زلِقة، والساقان تحاولان التشبُّثَ فتتورّطان برقصةٍ لا قانون لها ولا موسيقى.

تملّكَ الحماسُ الصبيَّ دون أن يدري هو نفسُه كيف جرى له ذلك. فلم تكن الرقصة التي أدّاها رقصةً معروفةً أو سبق أن أدّاها. ولم تكن حركةً شعائريّةً عرفها أو ابتدعها للاحتفال بالشمس والمرأة والماء. كان يشترك معه في رقصته هواءُ السهوب، ورائحةُ المرأةِ المعطَّرةِ بحمض اللّبن، وماءُ الزير المطعَّم بنكهة الطحلبِ الأخضرِ النامي على الحواف، والبيتُ الكبيرُ الذي يعتِّق شعاعَ الشمس بين قناطره والكوايز.

استمرَّ هذا كلُّه دقائقَ فقط، وكان أشبهَ بنشوةِ استقبالِ غزلانِ الندى عند الشروق.

كان الاثنان واقفيْن على المصطبة بين البيت الكبير وشجرةِ الكينا الضخمة في صحن الدار، غارقيْن في حرارة الشمس، حائريْن حيال دوّامةِ ما عاشاه منذ قليل. وما كاد الفتى يصحو من نشوة سعادته حتى وقف ككائن منعزلٍ فوجئ أثناء لعبه، وتبيَّن أنّه ليس بمفرده، وأنّه لم يحسَّ ويفعلْ شيئًا غيرَ مألوفٍ فحسب، بل قد أوتي شريكًا ومشاهدًا يقف إلى جواره أيضًا. وفي سرعة البرق، اتَّبَعَ أولَ خاطر خَطَرَ له ليمكّنه من الإفلات من سِحْرِ هذه اللحظات العجيبة التي أحاطت به كشرنقة وتملّكته. اتَّخَذَ وجهُه شكلَ قناعِ قاس، مجرَّدٍ من العمر والسنين، وكأنّه إنسان وُجد على الأرض فجأةً. نَظَرَ الى وجه ريّا حيث الحبورُ والدهشة، ثم انطلق يركضُ خارجًا لا يلوي على شيء.

عمّان